

أبو حامد الغزالي (*)

٥

رأيه في حكمة التكليف ورد شبهات الباطنية عليه (١)

﴿ جواب المسائل الاربع التي سألتها الباطنية بهمدان ﴾
(من الشيخ الاجل أبي حامد محمد بن محمد الغزالي رضي الله عنه)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلوات الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .
سئل ما قول سيدنا الشيخ الامام الاجل ، حجة الاسلام ، شرف الشريعة ، مقتدى
الفرق ، امام الائمة ، في هذه المسائل الاربع التي لبس (بها) هؤلاء القوم الذين طفوا
في البلاد ، فأكثروا فيها الفساد ، وموهوا بها استجلاباً لقلوب الخلق ، وهي هذه
﴿ المسئلة الاولى ﴾ أليس أهل الاسلام متفقين على ان الباري جل ذكره
غني عن كل شيء غير محتاج الى شيء ، ما . ثم مع ذلك كلهم معترفون بانه كلف
العباد العبادة وأقربها فكيف تراك نسبت بحجة العقل ان غنياً عن كل شيء ، يكلف من
لا يحتاج اليه ان يعمل عملاً هو غني عنه ؟ بين لي كيف ذلك لعلني ان أكون من العالمين
﴿ المسئلة الثانية ﴾ ان الله تعالى كلف العباد الطاعة ونهاهم عن المعصية ليثيب
من أطاع وبعاقب من عصى وهذا مستحيل جداً في العقول فأبي حاجة به الى
معاينة خلقه حتى يدعوه ذلك الى ان يكلفهم أمراً اذا لم يأتوه عاقبهم عليه وان

(*) تابع لما في الجزء ١٢ م ١٠ (١) عثر على هذه الرسالة في بعض المجموعات
القديمة ببغداد عالم العراق السيد محمود شكري افندي الأكوبي فأرسلها الينا لنشرها
في المنار فحمدنا سعيه ، وشكرنا فضله ، ونشرناها بنصها ، الا كلمات قليلة علمنا
باليقين انها محرقة فرددناها الى أصلها ، وبقيت فيها وقفات تركناها على حاملها
(المنار ج ٨) (٧٦) (المجلد الحادي عشر)

كان لا حاجة به الى ذلك فاقول مستحيل جدا لا توجهه حكمة وان كان تعالى به الى ذلك حاجة فما يصنع بالتكليف وهو قادر على ان يثب من يريد ويعاقب من يريد؟ فالتكليف أيضا حشو لا توجهه حكمة والحاجة نقص وانه سبحانه وتعالى لا ينسب الى نقص وهو غني غير محتاج

﴿المسئلة الثالثة﴾ ان الله تعالى كلف العباد الطاعة لينفهم بها آتراه جل ذكره عجز عن ان يفهم بغير التكليف حتى احتاج ان يكلفهم ثم يفهم؟ ان كان غرضه نفهم فالتكليف ساقط وهو حشو وان كان يعجز عن ذلك الا بالتكليف فالقدرة ساقطة والعجز ثابت وهو محال

﴿المسئلة الرابعة﴾ ان الله تعالى لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون وهذا باب تخبر فيه العقول هل يجوز ان يأمر حكيم بأمر يخرج عن الحكمة وينبو عنه العقل ثم يحظر على العاقل البحث عنه؟ أليس ذلك ضربا من الجور والظلم لانه جعل الحجية على هذا الخلق العقل وأمر أهله ونهاهم وخص غيرهم من البهائم على ما خلقوا عليه بالآلات التي خلقت لها وألم العقل استعمالها بمثل اللجام الذي تروض الدابة به وغير ذلك من حبال الصيد والحيل المعروفة التي يطول شرحها؟ واذا كانت حجة العقل على المكلفين والمأمورين والمنهين بأمره ثم يكلفون أمرا ويمنعون من الفحص عنه والتماس سبب يتصور به ما يكلفونه عندهم ويصح في معقولهم ومعوهم الذي هو حجة عليهم أليس يكون ذلك ظلما صريحا؟ ووجدنا المتحليين بالعلم من جميع الاصناف يقولون ان الله جل جلاله لا يقبل عملا الا على بصيرة فاذا منع العاقل من البحث والنظر أين يكون بصيرا وهل يرجي ان يوحى اليه؟ هذا منكر من القول لا يعقل وما لا يعقل فليس بشيء . ووجدنا هذا الكتاب الناطق بين الخلق من الحق يخبر في موضع بآية « لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون » ويخبر في موضع آخر بانه يسئل ويقتضي الجواب في قوله تعالى « ونحشره يوم القيمة أعشى » قال رب لم حشرتني أعشى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تُنسى » فأني سؤال أتم من هذا السؤال الذي اقتضي هذا الجواب وفي القول مثل هذا كثير والتناقض في مثل هذه الآيات ظاهر موجود اذا لم يهر عنه

بيان يقبله العقل . فهداه اعزك الله المسائل الأربع قد شرحت لك بعضها فلا بد من قول خامس تصح به التكليفات لأن سقوطها أيضا لا يصح . أبني ذلك فاني أراك من المحسنين . الى هنا كلامهم فان رأى سيدنا ان يجب عن هذا ويوضح هذه الاشكالات ويكشف عن هذه التليسات حاز به الاجر الجزيل والثواب الكثير ان شاء الله تعالى

أجاب وقال أما السؤال الأول وهو استبعاد التكليف مع الاستثناء وتوهم التناقض بينهما فمصدره الجهل بحقيقة التكليف فكان السائل لم يسمع قوله تعالى « من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها » وقوله « فلا أنفسهم يمهدون » وقوله « ان أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وان أسأتم فلها » كأنه ظن ان تكليف الله تعالى عباده يضاهي تكليف الانسان عبده فان السيد يكلف عبده الأعمال التي يرتبط بها غرضه وما لاحظ له فيه ولا يحتاج اليه فلا يكلفه به فكان هذا السائل ثبت في وهمه قياس فاسد وهو تشبيه تكليف الله تعالى بتكليف عباده فجعل نفسه مثالا لله، تعالى الله وتقدس عن خياله ومثاله، والكشف عن حقيقة التكليف مما يطول ومن اقتبس حقائق العلوم عن رأيه السخيف، وعقله الضعيف، وقياسه الفاسد، كثر تعثره بالضلالات، بل ينبغي أن يطلب حقائق العلوم من أهلها وهم العلماء الأقوياء القائمون بحقيقة المقولات المطلعون على اسرار الشرع العارفون بشروط الأدلة والبراهين المستبصرون بمداخل الغرور والتليس فيها . واذا كان شرح ذلك مما لا يسمح به عداوة؟ على مثل هذه الاستئلة الضعيفة الصادرة عن ضعف البصيرة فلا علاج للافهام الضعيفة انفع من ضرب الامثلة فلنقتصر على ضرب مثلين .

(المثل الاول) تكليف الله عباده يجري مجرى (معالجة) الطيب المريض فانه اذا غلبت عليه الحرارة مرة يشرب المبردات والطيب غني عن شر به لا يستضر بمخالفته ولا ينتفع بموافقته ولكن الضرر والنفع يرجع الى المريض وانما الطيب هاد ومرشد فقط فان وفق المريض حتى وافق الطيب شفي وتخلص وان لم يوفق تمادى به المرض وهلك وبقاؤه وهلاكه عند الطيب بيان فانه مستغن عن بقائه فكذلك خلق للعبادة الاخروية اسباباً تفضي اليها إفضاء الدواء الى الشفاء وهي الطاعات ونهي

النفس عن الهوى بالمجاهدة المزكية لها عن رذائل الاخلاق مشقيات في الآخرة ومهلكات كما ان رذائل الاخلاط ممرضات في الدنيا ومهلكات . والمعاصي بالاضافة الى حياة الآخرة كالسموم بالاضافة الى حياة الدنيا وللنفوس طب كما أن للأجساد طب فالانبياء أطباء النفوس يرشدون الخلق الى طريق الفلاح لتمهيد طرق التزكية للقلوب كما قال تعالى « قد افلح من زكاهها » وقد خاب من دساها » ثم كما يقال ان الطيب امر المريض بكذا او نهاه عن كذا وانه زاد مرضه لانه خالف الطيب وانه صح لانه راعى قانون الطيب ولم يقصر في الاحتماء وبالْحَقِيقَةُ لم يتماد مرض المريض بمخالفة الطيب لعين المخالفة بل لانه سلك غير طريق الصحة التي امره الطيب بها فكذلك (مداواة) النفوس هي الاحتماء الذي ينفي عن القلوب امراضها . وأمراض القلوب تفوت حياة الآخرة كما تفوت امراض الاجساد حياة الدنيا

﴿ المثال الثاني ﴾ ان الملك من الآدميين قد يخص بعض خدومه وعبيده الغائب عن مجلسه بالمركوب ليتوجه الى مجلسه تارة لحظ الملك في استخدامه والاستعانة على نظام مملكته ومصالحها به وهذا القسم ونظيره في حق الله تعالى محال وتارة ليتوجه العبد الى مجلسه وينال رتبة القرب منه ويسعد بسببه مع استغناء الملك عن الاستعانة به وتصميمه العزم على ان لا يستخدمه أصلاً ولكن ليقربه من نفسه لمجرد حظ العبد والزيادة في قربه . ثم العبد ان ضيع المركوب وانفق المال لا في الطريق الى السيد عد كافرًا بالنعمة وان ركب المركوب وانفق المال في الطريق متزودا به عد شاكرًا للنعمة لا بمعنى أنه نال الملك حظاً لنفسه ولكن اراد سعادة العبد فاذا وافق مراد السيد فيه كان شاكرًا وان خالف عدت مخالفته كفرانا والله يستوي عنده كفر العباد وايمانهم بالاضافة الى جلاله واستغنائه ولكن لا يرضى لعباده الكفر فانه لا يصح لعباده فانه يشقيهم كما لا يرضى الملك المستقفي لعبده الغائب الشقاوة بالذل والفقر ويريد له السعادة بالقرب منه وهو غني عنه قرب منه أو بعد . فهكذا ينبغي أن يفهم أمر التكليف فان الطاعات أدوية والمعاصي سموم وتأثيرها في القلوب ولا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم كما لا يسعد بالصحة إلا من أتى بمزاج معتدل وكما يصح قول الطيب المريض قد عرفتك ما يضرك وما ينفعك فان وافقتني فلنفسك

وإن خالفت فعلها فكذلك قول الله تعالى «من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها»
(وأما السؤال الثاني) فهو فرع من هذا السؤال فإن قوله ان الله مستغن
في إثابة عبده عن الطاعة وهو لم يتضرر بها بضاهي قول القائل ان الله مستغن في
في انشاء الانسان عن الأمر بالوقاع وفي انماء الطفل عن الرضاع وفي اشباعه عن
الطعام وفي اروائه عن الشراب وفي تصحيحه عن الادوية فإبانه عاقب بعقوبة الجوع
من ترك الأكل وعاقب بالمرض من ترك الادوية وعاقب بموت الطفل من ترك
رضاع والده وهذا خيال من يظن ان الله تعالى يفعل ذلك غضبا وانتقاما وليس يدوي ان
لفظ الغضب والانتقام مستعار وه أول وانما غضب الله عبارة عن إرادته الايلام
فكأ ان الاسباب والمسببات يتأدى بعضها الى بعض في الدنيا بترتيب مسبب
الاسباب فبعضها يفضي الى الايلام وبعضها الى الذات ولا يعرف عواقبها الا الاطباء
فكذلك نسبة الطاعات والمعاصي الى الآلام الآخرة وذاتها من غير فرق

وكذلك (السؤال الثالث) ينحل به فان الله تعالى لا يوصف بالمعجز عن الاشباع
من غير أكل والإرواء من غير شرب والانشاء من غير وقاع والإيناء من غير
رضاع ولكنه قد رتب الاسباب والمسببات كذلك لسر وحكمة لا يعلمها الا الله عز
وجل والراسخون في العلم وليس ذلك بعجب انما العجب في التعجب من هذا
التدبير المحكم والنظام المتقن ولعمري من لا يهتدي الى سر الحكمة فيه يتعجب
منه لقصور هدايته ومثاله في التعجب مثال الاعمى الذي دخل دارا فتمثر بالاوناني
الموضوعة في صحن الدار فقال لأهل الدار ما ارك عقولكم لماذا لا تردون هذه الاواني
الى مواضعها ولم تركتموها على الطريق؟ فقيل انها موضوعة في مواضعها وانما الخلل
في فقد البصيرة (١) وبالجملة فمن لم يدرك الفرق بين التعجب وبين البرهان أكثر
خطبه وضلاله وليس في هذا الا تعجب محض وان الله تعالى لم رتب الاسباب؟ ولو
رتبها على وجه آخر لتصور أن يتعجب منه جاهل و يقول لم لم يفعل ضده وهذه التعجبات

(١) كذا في الاصل و يظهر ان ههنا سقطا وتصحيحه بحسب المعنى ان يقال

وانما الخلل في فقد البصر وكذلك الخلل فيما ضرب له المثل في فقد البصيرة . والمثل
مذكور في الاحياء ولا أحد سمة في الوقت المذكور

منها اوهام العوام ولا يلتفت المحصل اليها بل الى مقتضى البراهين
 ﴿ واما السؤال الرابع ﴾ ففي ايراده خبط وكان السائل لم يقدر على ان يفصح
 عما في ضميره والذي يتحصل منه تعجبات اربع

(التعجب الاول) قوله كيف أمر بالشيء ومنع عن البحث عنه والبصيرة
 لا تحصل الا بالبحث؟ وهذا تعجب فاسد فان العمل يستدعي اعتقادا جازما أو معرفة
 حقيقية والاعتقاد الجازم يحصل بالتقليد المجرد عن سبيل التصديق والايان والمعرفة
 تحصل بالبرهان والوصول اليها بالبحث ولم يمنع عن البحث كل الخلق بل الضعفاء
 القاصرون عن الاطلاع على عو بصوات البراهين ومعاصات البحث وانما مثال ذلك
 امر الطبيب المريض (بالدواء) وامتناعه عن ذكر العلة في كون الدواء نافعا ومنعه المريض
 عن الاشتغال بالبحث عنه لعله بانه يقصر عنه فهمه ولو اشتغل بالبحث عن علل الطب
 لشق عليه وعجز عنه وزاد المرض واستضرته به فان وجد على الندرة مر ايضا ذكيا
 آنسا بمنهاج الطب وعلل الامراض لم يمنعه من البحث ولم يمتنع عن ذكر
 المناسبة بين الدواء وبين علته بل اذا علم انه ليس يكتفي بمجرد قوله وليس يصدق
 بمحض التقليد وتفرض فيه من الذكاء ما يفهم به العلة وعلم انه اذا فهم العلة والمناسبة
 اشتغل بالعلاج وان لم يفهم اعرض عن التقليد وجب عليه ذكر المناسبة والعلة ان
 كان يريد صلاحه ولم يمنعه عن البحث اذا علم اشتغاله به الا ان ذلك نادر في المرضى
 جدا والا كثرون يضمنون عن ذلك وكذلك معرفة العال والاسرار والبحث
 عنها في الشرعيات من هذا القبيل ،

﴿ التعجب الثاني ﴾ وهو تسخير البهائم الانسان يضاهي تعجب الانسان من
 يمشي خطوات لينظر الى منزهات ووجوه حسان فيقال كيف اتعب رجله وسخرها
 لاجل عينه والعين آتته كما ان الرجل آتته فما بال احداها جعلها خادمة واتعبها
 وجعل الاخرى مخدومة وطالب راحتها وهذا جهل بالاقدار والمراتب بل البعير يعلم
 ان الكافل يفتدى بالناقص وان الناقص يتسخر لاجل الكافل وهو عين الحكمة
 واما قوله ان ذلك ظلم فهو جهل بحمد الظلم فان الظلم هو التصرف في ملك الغير والله
 تعالى لا يصادف لغيره ملكا حتى يكون تصرفه فيه ظلما فلا يتصور منه الظلم بل له

ان يفعل ما يشاء في ملكه ويكون عادلا (١)

﴿التعجب الثالث﴾ أن الشرع كيف يرد بما ينبو عنه العقل؟ وهو قاسدان قوله «ينبوعه العقل» لفظ مشترك فان اراد به أن برهان العقل يدل على استحالة كخلق الله مثل نفسه والجمع بين المتضادين فهذا مما لا يرد به الشرع ولم يرد. وان اراد به ما يقصر العقل عن دركه ولا يستقل بالاحاطة بكنهه فهذا ليس بمحال بل مقصود بمئة الانبياء ارشادا خلق الى ما يقصر عقولهم عنه فليس بمحال أن يكون في علم الاطباء مثلا جذب المغناطيس للحديد والمرأة الحامل او مشيت فوق حبة مخصوصة أفت الجنين وغير ذلك من الخواص وهذا مما ينبو عنه العقل بمعنى انه لا يقف على حقيقته ولا يستقل بالاطلاع عليه ولا ينبو عنه بمعنى الحكم باستحالة وليس كل ما لا يدركه العقل محالا في نفسه بل لو لم نشاهد النار قط واحراقها فاخبرنا مخبر وقال اني احك حبة بحبة واستخرج من بينهما سناً احمر بمقدار عدسة تأكل هذه البلد وغيرها حتى لا يبقى فيها شيء من غير أن يتقل ذلك الى جوفها ومن غير أن يزيد في حجمها بل تأكل البلد ثم تأكل نفسها فلا تبقى لاهي ولا البلد لكنا قول هذا شيء ينبو عنه العقل ولا يقبله، وهذه صورة النار والحس قد صدق ذلك، فكذلك يستعمل الشرع على مثل هذه العجائب التي ليست مستحيلة وانما هي مستبعدة وفرق بين البعيد والمحال فان البعيد هو الذي ليس بمألوف والمحال ما لا يتصور كونه،

واما ﴿التعجب الرابع﴾ وهو انه لا يُسئل عما يفعل وهم يسألون ثم سئل وقيل «لم حشرتني أعشى وقد كنت بصيراً» قال كذلك أتتك آياتنا فتسيتم او كذلك اليوم تنسى» فمصدر هذا السؤال الجهل بكون «لفظ» السؤال مشتركاً فان السؤال قد يطلق ويراد به الإلزام كما يقال ناظر فلان فلانا فتوجه عليه سؤاله (٢) وقد يطلق

(١) النار: نسر العظم هنا بما جرى عليه الأشعرية وفيه نظر ظاهر وقد ينا حقيقة العظم وكونه محالا على الله تعالى في مواضع من التفسير والمنار (٢) هذا ما يعبر عنه الآن بالمسؤولية وهي بمعنى التبعة والمواخذة بمعنى كونه تعالى لا يسئل عما يفعل انه ليس لاحد سلطة فوق سلطته فيسأله عن فعله سؤال من يلقي عليه التبعة ويؤاخذة على ما عمل

ويراد به الاستخبار كما يقال سئل التلميذ والله تعالى لا يتوجه عليه السؤال بمعنى الإلزام وهو المعنى بقوله « لا يستل عما يفعل » إذ لا يقال له: لم؟ قول إلزام فأما انه لا يستخبر ولا يستفهم فليس كذلك وهو المراد بقوله « لم حشرتني أعشى » وهذا القدر كاف في جواب هذه الاسئلة اه والذي أوصي به هذا السائل ان ينظر لنفسه ودينه ويتقي ربه ويطلب عالما مليا بعلم العقل والشرع ليهديه الى الطريق فان من ترقى عن مجرد التقليد بأدنى كياسة ولم ينته الى رتبة الاستعلاء كان من الهالكين فعوذ بالله من فطانة نزالة وكياسة ضعيفة فان البلاء منه أولى إلى النجاة منها آمين

استحالة المادة

١

﴿ للدكتور خليل سعادة ﴾

كتبها عند إذاعة خبر هذا الاكتشاف

ستبدي لك الايام ما كنت جاهلا ويأتيك بالاخبار من لم تزود

او مض من كعبة العلم نبا خطير ، دوت له أرجاء العالم المتمدن اي دوي ، وعندني انه اعظم اكتشافات البشر ، وأسهي ما بلغت اليه مداركهم ، فلا يحسب بجانبه كشف العالم الجديد شيئا مذكورا ، وما بلوغ القطب الشمالي اليه سوى العوبة من الأعيب الصبيان ، كيف لا وهو الامنية الكبرى التي طمحت اليها ابصار فلاسفة العصور ، والغاية القصوى التي اشترأت اليها أعناق الحكماء في جميع الدهور ، : حلم رآه أسلافنا في ليل مدلم بظلمات الاوهام ، فتجلى لنا نورا باهرا يبدد دياجى الجوليل وينير بصائر الافهام ، بل قل هو الحق انزل على عيون مبصرة ، وآذان مصغية ، وقلوب واعية ، فزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا

نريد بهذه التوطئة الاكتشاف الحديث الخطير وهو استحالة المادة الواحدة البسيطة من عضو الى آخر كما تبين الآت في استحالة بخار الراديوم الى عنصر